

أزمة الديمقراطية

للاستاذ محمد عبد الله عنان

هل أن الشمس الديمقراطية أن تزرب؟ هذا سؤال يطرح منذ أعوام في معرض البحث والجدل، ولكنه يغدو اليوم أشد خطورة، ويشغل جميع الأذهان والضماير الحرة: فالنظم الديمقراطية تتحطم تباعاً في أمم كانت بالأمس أشد الأمم تعلقاً بالنظم والمثل الديمقراطية، والحكومات الدستورية تتخفى. تباعاً من الميدان لتقوم مكانها حكومات طغيان شامل، والحريات السياسية والاجتماعية القديمة تتحقق وتختفي لتستأثر بها وتتصرف فيها أحزاب وجماعات سياسية جديدة تقوم مبادئها ودعوتها على القوة القاهرة، والديمقراطية تهتز اليوم حينما استطاعت أن تبقى وتتسرب إليها عوامل الوهن والفساد: فهل يكون ذلك إيذاناً بأن صرح الديمقراطية غداً على وشك الانهيار، وأن الديمقراطية تسير إلى مصرعها النهائي في المستقبل القريب؟ هذا ما يتنبأ به أصحاب النظريات والمثل الجديدة القائمة على الطغيان الشامل، والقومية المتطرفة، وإنكار النظم البرلمانية، وخضوع الفرد المطلق، والايمان بالقوة المادية؛ أو بعبارة أخرى هذا ما يقوله دعاة الفاشية والوطنية الاشتراكية الألمانية والحقيقة أن الديمقراطية تجوز أخطر أزمة عرفت في تاريخها.

ويجب قبل كل شيء أن نعرف الديمقراطية بإيجاز. فهي في الأصل كلمة يونانية معناها قوة الشعب، وهي مبدأ سياسي اجتماعي يقوم على المساواة التامة بين الأفراد في الحقوق والواجبات، وغايتها الجوهرية أن يشترك الشعب كله في إدارة الدولة أو بعبارة أخرى أن يحكم نفسه بنفسه: والنظم البرلمانية أظهر وسائلها لتحقيق هذه الغاية. والديمقراطية الأوروبية الحديثة ترجع إلى الثورة الفرنسية. ولكنها لم تستطع ثباتاً في البداية، واستمرت نحو نصف قرن تناضل في سبيل مثلها، ولم توطد وتزدهر إلا في أواخر القرن التاسع عشر، بيد أنها لم تتقدم إلا في غرب أوروبا. أما في شرق أوروبا ووسطها، فقد كانت الملكيات القديمة في روسيا وتركيا والنمسا والمجر وألمانيا تطاردها وتخذ مثلها بكل ما وسعت. ثم كانت الحرب الكبرى، فانهارت الملكيات القديمة الطاغية، وقويت المثل.

والمبادئ الديمقراطية، وظفرت الديمقراطية، بإقامة نظمها في الجمهوريات الجديدة الفتية في روسيا، وألمانيا، والنمسا، وتشيكوسلوفاكيا، وبولونيا. أما اليوم فماذا بقى لها من هذا الظفر؟ لقد كان ظفر الديمقراطية في روسيا كالبرق الخلب، وكان اسمها بلا مسمى فلم تمض أشهر قلائل حتى قام طغيان البلشفية مكان الطغيان القيصري القديم، يخذ جميع الآراء والحريات الخصيمة؛ ولم تثبت الديمقراطية طويلاً في بولونيا، حيث وثبتت العسكرية وفرضت سلطانها على الجمهورية الجديدة، واتخذت من الحياة النائية ستاراً تملى من ورائه إرادتها. أما في ألمانيا والنمسا فقد استطال هذا الظفر أعواماً طويلة؛ واستطاعت الديمقراطية أن تنشئ الجمهورية الألمانية مكان الامبراطورية القديمة، وأن توطد دعائم الحريات الديمقراطية، وأن تقود مصائر الشعب الألماني خلال الأزمات والخطوب التي تعاقبت من جراء الحرب والهزيمة مدى أربعة عشر عاماً، ولكنها سقطت أخيراً صريعاً للاشتراكية الوطنية والطغيان الهتلري، ومهدت لمصرعها بخلافها الداخلي؛ ومنذ أسابيع فقط لقيت مصرعها في النمسا بعد أن أقامت فيها الجمهورية، وتولت حكمها وقيادتها في أعوامها الأولى، ولبثت خمسة عشر عاماً قوية مرهوبة الجانب. وأما في إيطاليا التي تمتعت منذ وحياتها بالحريات الديمقراطية في ظل الملكوية الدستورية، فقد غاضت الديمقراطية عقب الحرب بضربة سريعة، وقامت فيها الفاشية منذ اثني عشر عاماً تخمد كل الحقوق والحريات القديمة، وتحدي الديمقراطية في العالم كله، وتوه بقواها السياسية والاجتماعية، وتسير في مبادئ السياسة والاقتصاد من ظفر إلى ظفر، وتقدم القدوة والارشاد لكل نزعة أو حركة طغيان مماثلة.

فالديمقراطية تجوز في الواقع مرحلة عصية وبما كانت تدير انحلالها ومصرعها النهائي. بل إنها في البلاد التي مازالت فيها راسخة وطيدة الدعائم تحبظ في شمار من الصعاب: وتسحق أنظمة إرثانية لخصومها مجال الاتهام والانتقاص. ففي فرنسا، مهد الديمقراطية الحديثة، تشدد الحملة على النظم الديمقراطية والحياة النائية لما كشفت عنه الفضائح المالية الأخيرة (فضائح ستافسكي) من فساد شنيع يتغلغل في صميم الحياة العامة، ويصم الحكومات الحزبية والهيئات النائية بهم الرشوة واختلاس أموال الشعب، ويصم القضاء والبوليس بفساد الذمة والقسر على الجناة؛ ويقول خصوم الديمقراطية من

لسيادتها ، ويكتفى أن نسير في ذلك الى ما ارتكبه الفاشية الإيطالية في أعوامها الأول من الجرائم والاعتداءات المثيرة ، وما استعملته من وسائل البطش والارغام قبل أن تثبت اقدامها وتفرض ارادتها على الشعب الإيطالي ، ويكتفى أن نستعرض ما ارتكبه الاشتراكية الوطنية الألمانية مذ ظفرت بالحكم من ضروب السفك والعنف والانتهاك والمطاردات السياسية والدينية الوضيعة ، لتفرض مبادئها وارادتها على الشعب الألماني . وهذه الوسائل الهمجية التي تلجأ اليها الفاشية دائماً في تحقيق سيادتها حينما استطاعت أن تشق طريقها لا يمكن أن ترتفع من الوجهة المعنوية الى مستوى المثل الرفيعة والوسائل السلبية الحرة التي تقوم عليها الديمقراطية وتعمل في ظلها . وما يلاحظ أن الفاشية شعوراً منها بهذا الضعف المعنوي تحاول أحياناً أن تستتر وراء بعض المظاهر الديمقراطية ، فترى الفاشية الإيطالية مثلاً تحتفظ بالبرلمان حيناً وتبقى على بعض صور الحياة النيابية ، وتستخدم فكرة النقابات ؛ وترى الفاشية الألمانية (الاشتراكية الوطنية) تجري الانتخابات وتظاهر باستفتاء الشعب في الحصول على تأييد أغلبية الساحقة لتحقيق بعض أغراضها السياسية . وقد تفوق الفاشية على الديمقراطية أحياناً بالعمل السريع وتحقيق بعض المظاهر والغايات السياسية والاقتصادية التي عجزت الديمقراطية عن تحقيقها ، كما حدث في إيطاليا مثلاً حيث حققت الفاشية الإيطالية كثيراً من الأغراض والتأثيرات العملية القيمة ، ولكن هذا النجاح المادي يحقق في معظم الاحيان على حساب الحريات والحقوق الشعبية ، وليست وسائله مما يحمده دائماً .

لقد انتصرت القوى الرجعية على الديمقراطية في إيطاليا والمانيا والنمسا ؛ وقد تنصرت في غيرها غداً ، وربما بقيت الديمقراطية أعواماً أخرى تعاني هذا الضعف والانحلال . ولكن هذه الفورات الرجعية لا تقوم على مثل راسخة ، ولا تستمد بقاءها الا من القوة المادية ، وهي في الغالب وليدة ظروف وعوامل مؤقتة ، فتى تطورت هذه الظروف والعوامل فقدت اسباب الحياة . والتاريخ بعيد اليوم نفسه في اوروبا القديمة . في اوائل القرن الماضي ، على أثر انتهاء الحروب البونابارتية ، اجتمعت كلة العروش الاوربية القوية على سحق جميع النزعات والحركات الحرة ، والنمست لذلك عقد محالفة عرفت بالمحالفة المقدسة (اواخر سنة ١٨١٥) عقدت بين قياصرة روسيا والمانيا والنمسا ، واتخذت في المبدأ صبغة ميثاق

الملكيين والفاشست ، إن مثل هذه الجرائم لا يمكن أن ترتكب بمثل هذه الجرأة وهذا الاغراق الا في ظل الحياة السياسية الحزبية وفي ظل نظام تكسب فيه النيابة عن الشعب بقوة المال والنفوذ ، وغدت فكرة الدكتاتورية من الحلول المحتملة التي تطرح اليوم في فرنسا كوسيلة لانتشالها من هذه الفوضى ، وغدت هيبة الديمقراطية هدفاً لاشد الخلات . وفي انكلترا أعرق الأمم الاوربية في النظم والحريات الديمقراطية ، يهمس اليوم بكلمة الدكتاتورية ، وتلقى المبادئ الفاشية قبولا من الشباب الانكليزي ، ويوجد اليوم في انكلترا بالفعل حزب فاشستي صغير لم يحرز بعد أهمية سياسية ، ولكنه يعتبر رمزاً حياً لأثر الفاشية في انكلترا . ولم تحرز الديمقراطية في الأعوام الاخيرة الى جانب هذه الأزمات والخطوب أى ظفر أو تقدم حقيقي الا في اسبانيا ، حيث سقطت الملكية القديمة ، لتقوم مكانها جمهورية جديدة مشبعة بأبعد المثل والاماني الديمقراطية ؛ بيد أن الجمهورية الفتية مازالت تعاني صاعبات وأزمات تكاد تصدع بناءها فاذا يكون مصير الديمقراطية ازام هذه الخطوب ؟ يتولى أنصار الفاشية والطفليان إن الديمقراطية لا تستحق الحياة لأنها برهنت منذ الحرب انها ليست أهلاً لحكم الشعوب في ظروفها واتجاهاتها الجديدة ، وانها دفعت الحريات السياسية والاجتماعية الى حدود الفوضى ، وسخرت الشعوب لاهوائها ؛ وان الحياة البرلمانية أصبحت مظمراً عقياً من مظاهر التمثيل النيابي ، ولا تعبر عن ارادة الشعب الحقيقية ، وانها تغدو في كثير من الاحيان عقبة في سبيل الاداة الحكومية تمنعها من العمل المحمدي . وقد يجد أنصار الفاشية في تاريخ الحكومات الديمقراطية ما بعد الحرب كثيراً مما يؤيد هذه التهم ، ولكنهم يخلطون دائماً بين المبادئ الديمقراطية وبين الصور المختلفة التي تطبق بها هذه المبادئ . فهذه المطاعن قد تلحق ببعض النظم ووسائل الحكم التي تقوم على الفكرة الديمقراطية ، ولكنها لا يصح أن تنسب الى الفكرة ذاتها ، واذا كانت الاحزاب والحكومات الديمقراطية قد ارتكبت كثيراً من الأخطاء في ألمانيا وإيطاليا ، واذا كانت توصم اليوم في فرنسا بكثير من العيوب والتهم ، فانها ما زالت في انكلترا والسويد مثلاً تعمل في ظل الملكية بقوة وبراعة وتدل على أنها أمثل طرق الحكم المستنير العادل . والفاشستية لا يمكن أن تزعم انها بريئة من العيوب ، فهي أولاً أبعد صور الحكم عن تحقيق العدالة وصون الحرية ، لانها تقوم على القوة المادية ولا تعف عن ارتكاب أشنع وسائل العنف تحقيقاً

مضى عام للآنسة سهير القلماوى

تسارعت الأيام في سيرها الآلى المنظم السريع . الأيام الطويلة المملة ، والأيام القصيرة الطائرة ، كلها غرقت في بحر الفناء على ألا تعود . وانقضى العام فاذا الذكري تهادى حتى وقف أمامى ، ثم تمد يدها لتأني بأجزائها الممزوجة في مخيلتي تستكمل بها صورتها المؤلمة . فاذا الصورة هي هي كما كانت منذ عام ، وإذا الألم لها وإن خففه سلطان الزمان الذى لا يقهر ، إلا أنه مازال لاذعاً منزعجاً عن كل شئ . - واه .

كان صباح العيد منذ عام ، فاجتمع أفراد الأسرة كلهم في بيت الوالدين ، اجتمع الأخوات والأخوة ، والأزواج والأولاد والأخوال والأعمام ، واصطفوا جميعاً على مائدة الافطار ، وكلهم وجوههم مشرقة مستبشرة . وكانت هي بينهم - ومتى لم تكن بينهم ولو بجسدها - ولكنها كانت تفكر وتقدّر . تضعك معهم وتبسم لا بتسامهم ، ويشرق وجهها لاشراق وجوههم ؛ ولكن نفسها كانت تألم يائسة ، وعقلها مرتبك ، يقدر ويفكر ، ويقرر وينتقى عما قرر ، ثم يعود فيقرر ثانية ، فاذا القرار هو هو . وتقلب الاحتمالات والمتغيرات ، تستعرض في خيالها الساعات المقبلة ، وقد نظمتها حسبما ظنت أن ستكون . ماذا لو أنقضت قرارها ؟ ثم تعود فتنتقى عنه من جديد ؛ لم يرقها ما قدرت ، ولكن أى غلص غيره ؟ وأخيراً ، لا بد من القرار الأول ، لا بد منه .

لم يلاحظ عليها الحضور شيئاً ، فقد كانت الحركة التى تأتينا في في رواحها ومجيئها لخدمتهم - لأن أمور المنزل أصبحت كلها لها بعد زواج أختها - التى كانت تساعد كثيراً على إخفاء ما بها . واتهى الافطار فانتشروا في الدار ، وأصوات الاطفال المرححة الصاخبة تملأ أسماعهم . وانهزت هي الفرصة وصعدت الى حجرتها . خافت أن تعود الى التفكير فتربك من جديد ، ولقد شئت الحيرة ولا بد أن تنجو منها ، لقد كانت تلبس رأسها .

وصعدت وراها أختها تنادىها ، ونادتها فاذا بها قادمة نحوها

للعمل على تأييد السلام ، وإقامة العدل ، وبث الاخاء ، ولكنها نظمت وعقدت في الواقع للتعاون على إخماد الحركات الحرة التى أخذت تضطرم من غرب أوروبا الى شرقها ، وتبدو في مطالبات عنيفة بالحريات الدستورية . وكانت الحروب البونابارية قد شغلت أوروبا حيناً عن التفكير السياسى ، خست الريح الحرة التى أثارتها مبادئ الثورة الفرنسية ، ولكن الجيوش الفرنسية الغازية كانت تحمل أينما حلت طرفاً من هذه المبادئ ، فلما هدأت العاصفة التى أثارها نابليون ، عادت الافكار الحرة والامانى الدستورية تشق سيلها في معظم الامم الاوربية ، ومن ثم كان اجتماع العروش القديمة على مقاومتها وسحقها . وقد انضمت معظم الدول الاوربية الى المعاهدة المقدسة ، وطبقت غير بعيد في المانيا والنمسا حيث قيدت حرية الصحافة ، وفرضت الرقابة الرسمية على الجامعات ، ولكن هذه الجبهة القوية التى نظمها الطغمان لمقاومة الحريات الشعبية لم تغن شيئاً ، ولم يمض ربع قرن آخر حتى كانت معظم الدول الاوربية تضطرم بالثورات والثورات التحريرية ، وكانت القوى الرجعية ترغم على بذل المنح الدستورية المختلفة . وقد استمر هذا الصراع بين الطغمان والديمقراطية طوال القرن التاسع عشر ، وانتهى بظفر الحريات في معظم الامم الاوربية .

ونحن اليوم نشهد هذا الصراع كرة أخرى . ولكنه يتخذ اليوم صورة جديدة . فالقوى الرجعية لا تستند اليوم الى العروش والحق الالهى ، ولكنها تتشح بانوابشعية ، فالفاشية تزعم في ايطاليا ومانيا أنها تقوم بإرادة الشعب وتسير طبقاً لها ؛ وتحشى ان تبدو مجردة في ثوبها الحقيقى ؛ وهذا دليل على أنها رغم ظفرها المؤقت مازالت تحشى قوة الديمقراطية الخفية . ونحن مازلنا نؤمن بمستقبل الديمقراطية رقتها . واذا كانت الديمقراطية قد استطاعت ان تصمد طوال القرن الماضى لجميع القوى الرجعية التى هاجمتها وقاومتها ، مع أنها لم تكن قد استكملت يومئذ كل بموها وقوتها ، فانها اليوم وقد رسخت مبادئها ومثلها في جميع الامم الاوربية واقامت لها صروحاً قوية شاحنة ، وأضحت قوام الحياة العامة في كل بلد ، لا يمكن ان تستكين طويلاً الى عدوان الفاشية ، ولا بد أن تنهض غير بعيد من عثرتها ، وتستعيد كل قوتها وسلطانها ، يوم تنفض عنها غبار هذه المفاسد الشككية التى اسبغت ريباً على هبتها ؛ ويوم تنبذ ذلك الخلاف الذى فت في قواها ومكن لخصومها .

محمد عبد الله عنان